المخرج الفلسطيني رشيد مشهراوي:

أشعر أننا لم يعد لدينا ما نرويه للعالم لذلك اتجهت إلى السخرية المرّة

روتردام ـ «القدس العربي»:

ينتمي المخرج رشيد مشهراوي إلى تيار السينما الفلسطينية الذي بدأ يؤسس لذاكرة مرئية حقيقية كتلك التي بدأها المخرج ميشيل خليفي في عدد من أفلامه ذائعة الصيت مثل «الذاكرة الخصبة»، كما يمكن القول إن مشهراوي مولع بالتجريب، وقد أنجز أفلاماً تجريبية مهمة من بينها فيلم «توتّر» الذي ينعدم فيه الحوار، لكنك تستطيع أن تتبع قصة لها حكاية بداية، ووسط، ونهاية. وربما يكون فيلم «انتظار» هو نوع من اللعب على الفكرة التجريدية للانتظار، هذه الفكرة العصية على الإمساك «شخصنها» من خلال عدد من الممثلين غير المحترفين الذين أتقنوا دور المُنتظر، وتفننوا فيه. رشيد مشهراوي من مواليد مخيم الشاطئ بقطاع غزة عام 1962، وقد أنجز حتى الآن أكثر من عشرين فيلماً روائياً وتسجيلياً، وبينها عدة أفلام تجريبية. ومن أبرز أفلامه «الحصار»، «أيام طويلة في غزة»، «الملجأ»، «رباب»، «وراء الجدران»، «حيفا»، «دار.. دور»، «موسم الحب»، «تذكرة سفر إلى القدس»، «عرفات أخي» و«انتظار». أسس في رام الله عام 1996 مركز الإنتاج والتوزيع السينمائي، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى رام الله، وما يزال منتظراً العودة إليها. وعلى هامش الدورة الخامسة والثلاثين لمهرجان روتردام الدولي التقيناه، ودار بيننا الحوار الآتي:

■ الانتظار فكرة مجردة، ولكنك شخّصتها، كيف تمكنت من تشخيص الفكرة؟

■ الانتظار في جوهره بالمفهوم العام فكرة مُتعبة. أنا حاولت أن أدفع بهذا الانتظار بأتجاه الإنسان الفلسطيني. نحن كبشر شركاء بكثير من الانتظارات، ولكن الفلسطيني له انتظاره الخاص الذي يمتّد إلى نحو ستة عقود، والذي حدث مع الفلسطينيين في الثماني والخمسين سنة الأخيرة يدعك تشعر أحياناً وكأن الانتظار شيء فلسطيني بامتياز، أو كأننا أصبحنا من محترفي الانتظار. في هذا الفيلم حاولت أن أتعامل مع الانتظار من وجهة نظر عبثية أيضاً فأنا نفسي «اللاجئ» أصبحت لاجئاً بصيغة مضاعفة، لأنني لا أستطيع العودة إلى بيتي في رام الله. في هذا الفيلم حاولت أن أصنع شيئاً جديداً لا يتناول الموضوعات المكررة، والمُعادة، والتي شبعت رصداً ومعالجة إلى الدرجة التي بتُّ أشعر فيها بأننا لم يعد لدينا ما نرويه للعالم، ولهذا اتجهت إلى السخرية المرّة، والتهكّم الحاد. ومن خلال هذه المواقف الكوميدية السوداء أعتقد أنني جسدت فكرة الانتظار المجرّدة بنجاح واضح تستطيع أن تتلمسه في أعين المشاهدين.

■ السينما بدأت صامتة، وهي تعوّل على الصورة وليس على الكلمة أو الحوار. إلى أي مدى تنطبق هذه الحقيقة على السينما الفلسطينية؟ هل تحتاج السينما الفلسطينية إلى سينما صورة فقط أم إلى سينما فكرة؟

■ تحتاج السينما الفلسطينية إلى سينما صورة، بمعنى أنها تكون تقنياً وفنياً وموضوعياً وحرفياً مثل أي سينما أخرى في العالم تصنع أفلامها بشكل مسترخٍ ومريح، ثم يأتي موضوع فلسطين أو الوضع السياسي لها بوصفها دولة مُحتلّة لها معضلاتها الكبيرة. إلا أنني كفلسطيني، وصاحب قضية، ويجثم الاحتلال على صدري منذ أكثر من خمسة عقود، ولدي صراع مع عدو قاسٍ جداً، ولاجئ منذ سنوات طوال، وصاحب حق لا بد أن أسترده، كل هذه المؤشرات الحقيقية لا تمنعني من التفكير بسينما ذات تقنيات عالية، ومنسجمة مع التطور العلمي الحديث. إذاً، عليك أولاً أن تكون سينمائياً حتى تستطيع مساعدة القضية التي تناضل من أجلها، فنحن نناضل على أكثر من صعيد، ولعل تحدي التقنيات هي واحدة من أشكال المثابرة التي لا تقل شأناً عن أوجه الصراع الأخرى مع العدو. في فلسطين نحن لدينا أحداث بشكل يومي، وعندنا وضع فيه اهتمام عالمي لأن مشكلتنا نحن مع إسرائيل. الاهتمام العالمي بالمناطق الساخنة في الشرق الأوسط واضح للجميع. وقد لعبت كثير من الظروف دوراً مهماً في أن يكون الفيلم الفسلطيني أكثر وثائقية بسبب الصراع السياسي الذي يضطرك لأن توثّق، كما يلعب التمويل دوراً مهماً في الخطوط العامة للإنتاج السينمائي بسبب عدم وجود إمكانيات ذاتية وكوادر وتقنيات ومختبرات ودور عرض وموزعين ومنتجين وتلفزيون وما إلى ذلك، الأمر الذي دفع بالسينما لأن تكون مبادرات لبعض الأشخاص المتحمسين لعملهم وقضيتهم حتى أن سبب استمرارهم في العمل السينمائي ربما يعود إلى علاقاتهم التي رسّخوها مع الآخرين. نحن نحتاج سينما الفكرة والحوار، كما نحتاج إلى سينما الصورة مثلما يحتاجها أي فنان عالمي آخر بغض النظر عن هويته أو البلد الذي ينتمي إليه.

■ القضية الفلسطينية صار عمرها الآن أكثر من خمسين سنة. هل تعتقد أن السينمائيين الفلسطينيين قد أسسوا لذاكرة بصرية من خلال إنجازهم الوثائقي هذا؟

■ هناك نوعان من الذاكرة المرئية التي يمكنك أن تستشفها عبر التأسيس لسينما فلسطينية كانت تنتج خارج فلسطين من خلال مؤسسات المنظمات الفلسطينية المختلفة بما فيها منظمة التحرير، وهذه السينما حسب رأيي لم تؤسس ذاكرة لأنها عندما بدأت كان لديها هدف تعبوي، وليس تأسيس ذاكرة، والهدف التعبوي نضالي صرف. وهذه السينما صُنعت في تونس أو بيروت أو مصر، بمعنى آخر أنها لم تحتك بالحياة اليومية المباشرة للمجتمع الفلسطيني، كما أنها كانت تميل إلى كثير من الشعارات الرائجة آنذاك. أنا يتهيأ لي أن التأسيس للذاكرة السينمائية الفلسطينية قد بدأ فقط في بداية الثمانينات من خلال بعض الأفلام الوثائقية وبعض الأفلام الروائية، أي في الفترة التي بدأ فيها المخرج الفلسطيني ميشيل خليفي يشتغل على فيلم «الذاكرة الخصبة»، وأخرج «طريق النعيم» و«عرس الجليل» و«نشيد الحجر» و«حكاية الجواهر الثلاث» و«الزواج المختلط في الأراضي المقدسة» ويعرض أفلامه في مهرجان «كان» ثم جئت أنا وعملت «حتى إشعار آخر» و«حيفا» و«تذكرة إلى القدس» وعرضت في مهرجانات كثيرة، وآخرون. هذه السينما تقدّم الفلسطيني بوصفه إنساناً صاحب حق في الحياة والعيش الرغيد ضمن حدود بلده، كما ترصد حركة المجتمع الفلسطيني، وإيجابيات الإنسان الفلسطيني وسلبياته وفي هذا المكان والزمان. هذه السينما ممكن أن تؤسس لذاكرة مرئية سينمائية. كما أود التأكيد مرة أخرى وأتساءل فيما إذا كانت الذاكرة المرئية ممكن أن تكون هدفاً بحد ذاته ضمن الأوضاع التي نعيش فيها الآن؟ كلا، أنا أعتقد أن الهدف الأكبر لم يكن من أجل تأسيس ذاكرة سينمائية فقط، وإنما من أجل إثبات وجود تساهم السينما في تحقيقه. كان همّنا أن نوضح هوية بلدنا، وأن نبرز ملامح شعبنا بلغته وحضارته وتقاليده وثقافته بإيجابياته وسلبياته. هنا لعبت السينما الفلسطينية دوراً مهماً جداً لدرجة يمكن أن يكون فيها الوطن الفلسطيني كبيراً وقوياً رغم كونه موجوداً في السينما، وغير موجود في الواقع.

■ عندما شاهدنا فيلم «انتظار» في مهرجان روتردام الدولي كانت بعض الشخصيات معروفة ومحترفة مثل شكران مرتجى ومحمود المساد وبعض الفنانين الأردنيين المعروفين، غير أن البقية الباقية لم يكونوا محترفين وليست لهم علاقة بالسينما. ما هي الغاية من استثمار شخصيات غير محترفة؟ هل لأن الموضوعة تتطلب أشخاصاً غير محترفين أم أن هناك أسباباً أخر؟

■ الأغلبية كانوا غير محترفين وعدد من المعروفين طبعاً كانوا خمسة أو ستة ممثلين من الأردن وكل واحد منهم أدى مشهداً، ولكنهم على مستوى الوطن العربي معروفون جداً مثل عرين عمري التي لعبت دور بيسان وهي معروفة وقد مثّلت في فيلم «برايفت» لمحمد بكري، وأخذت جائزة في مهرجان لوكارنو، كما أن محمود المسّاد معروف كمخرج أيضاً، وشكران مرتجى معروفة في المسلسلات التلفازية السورية. ومع ذلك لم يكن هدف الفيلم إبراز أسماء أو تلميع لصورة نجوم، بل بالعكس كانت القضية بالمقلوب، إذ كنت أريد أن أنجز فيلماً يكون أبطاله غير معروفين فنياً. وكنت أبحث عن البساطة والعفوية وبأقل لباس وأقل مكياج وأقل تمثيل وبأدنى درجة من الحرفة التمثيلية لكي يكون الفيلم قريباً للوثائقي وللواقع. وأعتقد أن هذا هو ما تحقق من خلال الفيلم.

■ ولكن البعد المجازي كان له دلالات كبيرة لأن الانتظار الفلسطيني لا يشبه أي انتظار آخر.. أنت لعبت على البعد المجازي. أليس كذلك؟

■ هذه هي الفكرة تماماً. أنا بدأت الفيلم بفكرة الانتظار، أو دعني أقول بفكرة اللعب الفني على الانتظار نفسه، وبمفهوم الانتظار الفلسطيني، ثم بدأت بعد ذلك باللعب على فنية السيناريو أو تقنيته. كيف تعمل شيئاً مليئاً بالسخرية الكبيرة وممتلئاً حزناً ومرارة بنفس الوقت؟ نعم لعبت على المجاز وهذا المجاز هو الذي عمّق فكرة الفيلم من خلال التهكم والسخرية المرة.

■ هل لاقيت صعوبة في ترويض محمود المسّاد كمخرج وتحويله إلى ممثل بالرغم من أنه مثّل في بعض الأدوار السابقة في أفلام أخر؟ هل هناك صعوبة في التعاطي مع مخرج آخر يحترف المهنة نفسها؟

■ لم أفكر في أثناء العمل ولا مرة واحدة أنني أتعامل مع مخرج وليس مع ممثل. الاتجاه العام كان مع مجموعة فلسطينيين سينمائيين وزعنا على بعضهم أدواراً مختلفة لكي نعمل هذا الفيلم. من وجهة نظر محمود أنه كان يجب أن يلعب دور المخرج في هذا الفيلم لأنه مخرج أصلاً، فلعب دور المخرج، وأداه بشكل جيد. أظن أن محمود المساد ليس لديه طموح في التمثيل مستقبلاً لأنه أحبّ أن يقوم بهذا الدور الذي اقتنع به من أجل أن ننجز هذا الفيلم الناجح. لم يدر النقاش في مرة سابقة حول مستقبله في التمثيل، بل كان الحوار دائماً يدور حول الموضوع وطريقة إنجاز هذا الفيلم التهكمي والساخر بمرارة.

■ هل لديك طريقة محددة في استنطاق الممثل، وتثوير أعماقه. وهل تستطيع كشف وإظهار مواهبه كلية إلى الخارج؟

■ في بعض الأفلام يحتاج الوضع لجو خاص، وطريقة عمل محددة تقتضي هذا التثوير والاستنطاق فأنا حتماً سأحاول تحقيق هذا الشيء الذي ينسجم مع حاجة الدور وطبيعة الفيلم.. في فيلم «توتر» ليست هناك كلمة واحدة تقال، وإنما هناك أشخاص، ولكنك تستطيع أن تستشف الحكاية التي فيها بداية وتصعيد درامي ووسط ونهاية. في فيلم «حيفا» كان محمد بكري ممثلاً فلسطينياً كان يجب أن يكون مجنوناً وعاقلاً في المخيم في الوقت نفسه، وكان موضوع الفيلم سياسياً وله علاقة باتفاقية أوسلو للسلام. وكان ينبغي أن ندخل إلى تفاصيل الشخصية فيما يتعلق بكل حركة ونأمة ونظرة. عملياً ما كنت أبحث عنه هو ورشة عمل للتواصل مع الممثلين الثلاثة في فيلم «انتظار» وهم الذين قادوا العمل «المخرج والمصور والمذيعة» لقد حاولت كثيراً ألا يكون هناك تمثيل تماماً مثل الناس الآخرين الذين لم يمثلوا وإنما كانوا طبيعيين جداً في طرح فكرة الانتظار. ومن وجهة نظري فإن العمل الشاق كان أكثر مع الممثلين الموهوبين والمحترفين أنفسهم، لأنني طلبت من كل واحد منهم أن يلعب دور ممثل سيء. وهنا تكمن صعوبة العمل الفني لأنك يجب أن تجرّد الممثل المحترف من خبراته الفنية وقدراته وتجعله يؤدي دور ممثل غير محترف، وسيء، ولا يعرف شيئاً عن التمثيل. هذا هو التناقض الذي يكمن فيه كشف المهارات والخبرات أو استنطاق القدرات الداخلية للممثل.

■ هل أشارك فوز فيلم «الجنة الآن» بحصوله على الغولدن غلوب كأفضل فيلم أجنبي، وهل تعتقد أن هذا الفوز هو فاتحة خير للسينما الفلسطينية التي وضعت خطواتها الأولى على السجادة الحمراء؟

■ أنا أريد أن أنتظر في هذا الموضوع، لأنه يهيأ لي أن هناك نوايا سياسية في الموضوع. ببساطة لأن جوهر الفيلم قائم على عمليات استشهادية، ثم فجأة يتركون موضوع التفجيرات الإرهاب بحسب القناعات التي طرحها المخرج وكاتب النص. نحن منذ خمس سنوات ننتج أفلاماً تشترك في مهرجانات عالمية مثل «كان» وبرلين وروتردام وغيرها، وقد أخذت بعض هذه الأفلام جوائز مهمة، ولكنني لست متأكداً تماماً فيما إذا كان هذا الأمر سيحدث قبل 11 سبتمبر أو قبل «موآل» الإرهاب الذي بدأت أمريكا تغنيه. نحن نريد للسينما الفلسطينية ألا تنبني على حدث من هذا النوع. نحن نريد سينما تأخذ حقها الطبيعي المتسلسل والمتدرج والذي يأتي نتيجة لتراكم خبرات فنية. نحن لا نريد نتيجة لمرحلة ما، أولحدث ما أن ترتفع أي سينما في العالم إلى السماء، بل نريد لهذه السينما، فلسطينية أو غير فلسطينية، أن تأخذ مكانتها الطبيعية واستحقاقاتها الموضوعية، أي باختصار نريد شيئاً موزوناً لا يعترض عليه ذوو الخبرة والاختصاص وأصحاب المواقف الحقيقية الذين ينتصرون للفن دائماً. أنا أربط الذي يحدث في منح هذه الفيلم أية جائزة بالوضع السياسي وأقول حسناً، هذه هي الموضة، ولكن في أعماقي أنا أفرح طبعاً عندما أسمع أن فيلماً فلسطينياً أخذ جائزة «الغولدن غلوب». هذه مسألة أخرى. أنا ومنذ سنوات طوال أتعامل مع الأمريكان والأوروبيين. وأعرف من خلال خبرتي في التعامل معهم لماذا يكرّمون فيلماً ويهملون آخر. ما أريده أنا أو أتمناه على الأقل أننا كعرب أن نعمل أشياءنا، ونصورها بأنفسنا، ونقدمها للعالم بشكل جميل وراق، ولا نتنازل عن الشروط الفنية أو الفكرية. وهذا هو الذي يوصلها إلى النجاحات الكبيرة التي نتجاوز من خلالها سلسلة خيبات الأمل الكبرى.

■ على الصعيد الشخصي لتجربتك السينمائية التي يمتد عمرها إلى عشرين فيلماً هل وضعت بصمات لك في هذه التجربة السينمائية كمخرج؟ وهل تنتمي إلى أسلوب أو تيار سينمائي محدد؟ وهل لديك مؤثرات من رؤى وتيارات إخراجية أوروبية أو عربية، أم أن لديك أسلوبك الخاص النابع من أعماقك؟

■ تستطيع القول إنني أحب السينما الإيطالية القديمة، ولكن ليس لدي مخرج محدد أحبه كنموذج مثالي، ولكن من الممكن أن أحب فيلماً مهماً لمخرج ما، ولكنني قد لا أحب أفلامه الأخرى. أحب الواقعية الجديدة، وأحب أن أجرّب دائماً. في رأيي أن السينما العربية ينبغي أن تشبهنا نحن، وهذا ما هو مطلوب منا. أحاول أن تكون السينما مستخلصة من أدواتنا بمفهوم السيناريو والتصوير والمونتاج، أي أنك حينما تشاهد فيلماً من دون أسماء تستطيع أن تنسبه فوراً إلى السينما الفلسطينية، أي من دون الحاجة إلى أن ترى الجنود الإسرائيليين أو الانتفاضة الفلسطينية، وهذا هو التحدي الكبير الذي أبحث من خلاله عن هذه السمات الفنية. لقد أقمت العديد من الدورات السينمائية لكثير من المخرجين الفلسطينيين ومنهم هاني أبو أسعد نفسه، وقد بدأ العمل معي كمساعد إنتاج، وأنتجنا له فيلمه القصير الأول، ولدي الآن 16 مخرجاً فلسطينياً يتدربون عندي في مركز الإنتاج السينمائي وبعضهم أنجز أفلاماً مهمة لا يمكن غض الطرف عنها.

التقاه: عدنان حسين أحمد

رشيد مشهراوي (القدس العربي)

لقطة من احد افلام مشهراوي

«البحث عن فكرة» للكاتب التونسي محمود الحرشاني:

رحلة مع أفكار عدد من المثقفين والكتاب العرب

تونس ـ «القدس العربي»:

صدر هذه الأيام للكاتب والصحافي التونسي محمود الحرشاني كتاب جديد، عن منشورات مرآة الوسط يحمل عنوان «البحث عن فكرة» يتضمن مجموعة من الحوارات الصحفية مع عدد من رجال الثقافة والفكر والإعلام العرب، وهي حوارات سبق للكاتب أن أجراها معهم في عدد من العواصم العربية مثل بيروت، الجزائر، الدار البيضاء، المنامة، دبي، أبو ظبي، الكويت وطبعا تونس.

ولئن سبق نشر هذه الحوارات في عديد الصحف والمجلات العربية ذات الانتشار الواسع، فان تجميعها وإعادة نشرها في كتاب، هو بمثابة إحياء هذه الحوارات من جديد نظرا إلى جوهرها ومحتواها لا يرتبط بأحداث عابرة بقدر ما هو يتصل بمسائل ثقافية وحضارية دائمة، لا تغيب عن الساحة إلا لكي تعود إليها بأكثر قوة مثل قضايا الإعلام ووظيفة الفضائيات والترجمة وتأثيرات العولمة والحوار بين الحضارات والأديان والثقافات ووظيفة الفن في المجتمع، ورسالة المبدع والفنان في مجتمع يشهد تحولات كبيرة، بصفة عامة...

الكتاب ومحتواه

يأتي هذا الكتاب الجديد للكاتب محمود الحرشاني، بعد كتابه الذي صدر السنة الفارطة بعنوان «مذكرات صحفي في الوطن العربي» وقد يكون كتابه الجديد «البحث عن فكرة» هو امتداد بشكل أو بآخر لكتابه الأول مذكرات صحفي فالعوالم والطقوس نجدها تقريبا هي نفسها، ولئن اختلفت صيغة الكتابين، فإذا كان كتاب «مذكرات صحفي» كتاب في أدب الرحلات والمذكرات فان كتاب «البحث عن فكرة» هو كتاب في أدب الحوارات والغوص عميقا في أفكار عدد من المثقفين والكتاب الذين التقاهم الكاتب وحاورهم.

وقد جاء الكتاب الجديد «البحث عن فكرة» في 110 صفحات من القطع المتوسط، ويتميز بالإضافة إلى نصوص الحوارات بكلمات خطية لعدد من ضيوف الكاتب جاءت مرفقة مع كل حوار بالإضافة إلى مجموعة من الصور، وكل هذا يكسب الكتاب قيمة توثيقية هامة، ويجعله بمثابة المرجع المهمّ الذي لا غنى عنه عند الباحث أو الدارس.

من هم ضيوف الكتاب؟

حاور المؤلف في هذا الكتاب عددا من رجال الفكر والثقافة ورموزها في الوطن العربي، وقد توزعت هذه الحوارات على خارطة الوطن العربي. فنجد حوارات مع الأساتذة والكتاب: الشاذلي القليبي الأمين العام الأسبق لجامعة الدول العربية، الدكتور والروائي عبد القادر بلحاج نصر، الممثلة المسرحية نعيمة الجاني، من تونس، ومن مصر حادث الكاتب الناقد الأدبي مصطفى ناصف، الناقد أيمن ميدان، الممثل نور الشريف والممثلة إلهام شاهين. ومن البحرين حاور المؤلف الأستاذ في علم الاجتماع محمد جابر الانصاري ومن فلسطين مجد حوارا مع السيدة أم الشهيد محمد الدرة، ومن الكويت حاور الكاتب الدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة العربي، ومن لبنان نطالع حوارا مع الشاعر شوقي عبد الأمير المشرف على مشروع كتاب في جريدة، ومن ايطاليا نجد حوارا مع المستعربة الايطالية كاميرا دافلينتو التي قامت بترجمة عدد من الأعمال العربية إلى اللغة الايطالية، وفي خاتمة الكتاب نجد حوارا مع الأديب والكاتب التونسي محمد مصمولي ومن السودان حاور المؤلف الروائي الشهير الطيب صالح صاحب رائعة موسم الهجرة إلى الشمال، ومن فلسطين الراحلة فدوى طوقان.

قضايا حاضرة في الحوارات

من خلال قراءة سريعة لهذه الحوارات يمكن أن نصنف أبرز القضايا الحاضرة في الكتاب في المسائل التالية:

ـ وظيفة وسائل الإعلام مكتوبة ومسموعة ومرئية في المجتمع العربي الحديث، وقد جاءت الإجابات حول هذه القضية الهامة على ألسنة كل من الأساتذة الشاذلي القليبي، محمد مصمولي، محمد جابر الانصاري، شوقي عبد الأمير، الطيب صالح ....

ـ العولمة تأثيراتها على المجتمع العربي، ونجد إجابات وردوداً حول هذه المسألة موزعة عبر كافة الحوارات ولكنها تظهر بصفة جلية في أجوبة الأساتذة الشاذلي القليبي، الطيب صالح، سليمان العسكري والدكتور محمد جابر الانصاري..

ـ الصراع العربي الإسرائيلي وتأثيراته، وقد وردت إجابات حول هذه القضية الخطيرة على ألسنة كل من الكتاب الشاذلي القليبي، السيدة ام الشهيد محمد الدرة التي استشهد ابنها على يد الجنود الإسرائيليين والطيب صالح والشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان..

ـ وظيفة المثقف والأديب في المجتمع الحديث وقد وردت إجابات حول هذه القضية على ألسنة كل من الأساتذة والكتاب، عبد القادر بلحاج نصر، الشاذلي القليبي، سليمان العسكري، مصطفى ناصف..

ـ العلاقات العربية العربية، أو الحوار الثقافي العربي العربي وقد وردت إجابات بشأنه على ألسنة كل من الأساتذة الشاذلي القليبي (بوصفه أمينا عاما سابقا للجامعة العربية)، محمد جابر الأنصاري (باحث في علم الاجتماع) سليمان العسكري (رئيس تحرير مجلة العربي) الطيب صالح (روائي) مصطفى ناصف (ناقد أدبي).

ـ قضايا نشر الكتاب العربي والتعريف بالأدب العربي في الداخل والخارج، وقد تحدث في هذه المسألة كل من شوقي عبد الأمير، عبد القادر بلحاج نصر، مصطفى ناصف، الشاذلي القليبي، الطيب صالح ومحمد مصمولي.

ـ تأثير الصراع الإسرائيلي على الأدب العربي وقد ورد ت إجابات بشأن هذه المسألة على ألسنة كل من الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان وام الشهيد محمد الدرة، والشاذلي القليبي.

ـ وظيفة الدوريات العربية في التعريف بمجهود الكاتب العربي، وقد وردت إجابات حول هذه القضية الهامة على ألسنة كل من الأساتذة سليمان العسكري، الشاذلي القليبي، عبد القادر بلحاج نصر، محمد مصمولي.

العنوان والكتاب

جاء هذا الكتاب تحت عنوان «البحث عن فكرة» وهو من العناوين التي تلفت النظر لأول وهلة فالكاتب من خلال هذا العنوان يفتح مجال الاجتهاد أمام القارئ لطرح الأسئلة التي تخامره، وفي مقدمتها «عن أي فكرة يبحث الكاتب» ونرى أن الكاتب لم يقدم إجابات واضحة أو شافية بل إن هذا القول «البحث عن فكرة» يتجدد لديه وعنده مع كل حوار جديد ومع كل شخصية ثقافية جديدة يلتقيها، ديدنه البحث عن فكرة ويبدو أن هذا المقال هو سؤال متنقل، يرافق القارئ من أول صفحة الكتاب إلى آخر صفحة منه دون أن يفقد وهجه أو حرارته.

لقد اهدى المؤلف كتابه إلى كل الشخصيات التي حاورها، وخص بالإهداء والده صالح في الذكرى الأولى لرحيله مع نشر صورته.

خلاصة القول

إن كتاب محمود الحرشاني الجديد «البحث عن فكرة» هو كتاب مفتوح على أكثر من فكرة وهو من جنس الكتب التي تحتاجها المكتبة التونسية والعربية، ونقول إن الكاتب محمود الحرشاني يعزز هذا الكتاب موقعه في الساحة الأدبية والثقافية لا فقط التونسية وإنما العربية كذلك. وقد استطاع هذا الكاتب المثابر من مدينة صغيرة في وسط تونس أن يحقق لنفسه انتشارا داخل وطنه وخارجه أيضا، وهو حاليا يستعد لإصدار كتاب جديد يتضمن مجموعة من رسائل عدد من الأدباء والكتاب العرب فضلا عن كتب أخرى جاهزة للنشر.

تداعيات

ظاهرة اغتيال وإجبار الباحثين العراقيين على الصمت

علاء اللامي*

■ قبل بضعة أشهر، أثار قرار الباحث المصري سيد القمني بالتوقف عن الكتابة إطلاقا، على أثر تهديد بالقتل تلقاه من قبل جماعات تكفيرية، زوبعةً طالت وتشعبت ولكنها انتهت كما تنتهي موجة متهالكة على شواطئ نائية. لم تثر تلك الواقعة الكثير من الفعل التضامني بين نخب المجتمعات المدنية في العالم العربي، بله في طبقة أهل الفكر والقلم العرب أنفسهم. ربما اعتبرت حالة القمني، حالة شخصية شابها الالتباس والغموض، غير أن قرارا جديدا بالصمت عن الشأن الوطني وليس عن الكتابة ككل ـ لحسن الطالع ـ صدر عن باحث عراقي معروف هو الدكتور سيار الجميل: فتحت عنوان «الرسالة وصلت» نشرت جريدة النهار اللبنانية، في عددها الصادر يوم الخميس 2006/2/2 رسالة مرسلة من الدكتور الجميل، قال فيها (أعلن للملأ أجمع وبالأخصّ قرائي الأعزاء من المتابعين، وكل أصدقائي وزملائي في أرض الوطن الحبيب، وفي كل شتات العالم، بأنني توقفت منذ صباح هذا اليوم (31 كانون الثاني ـ يناير 2006) عن الكتابة بالشأن العراقي وتحليل مسائل العراق السياسية والتحدث فيها، وبأي وسيلة إعلامية أو محافل سياسية.

وسأنصرف إلى شؤوني الفكرية وبحوثي التخصصية ومحاضراتي الثقافية. وليعذرني القراء الأعزاء عن البوح الآن بالأسباب التي دعتني إلى هذا الإجراء. داعيا للعراق بكلّ الخير والتقدّم، وان يلهم كل العراقيين الوئام والسداد. مع تمنياتي للجميع بالنجاح والتوفيق، وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...سيار الجميل / أستاذ جامعي عراقي مقيم بين الإمارات وكندا).

إن صيغة الرسالة، على ما فيها من ضبابية وكلمات منتقاة ومحسوبة، تذكرنا بصيغ أخرى من اعترافات وتعهدات كانت السلطات الأمنية في الأنظمة الشمولية تنتزعها انتزاعا من الكتاب والفنانين والباحثين المختلفين معها والمخالفين لنهجها.

هذه الرسالة تصرح بين سطورها بالكثير، فلا أحد يختار الصمت عن مناقشة الشأن العام في وطنه طوعا ودون إبداء الأسباب. ثم إن امتناع الكاتب عن التصريح بالأسباب الحقيقية لقراره يقول بحد ذاته الكثير، أما كلمات الآي القرآني الكريم التي ختم بها الكاتب رسالته «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» فبليغة حقا، أما جريمة اغتيال المحلل السياسي والأستاذ الجامعي الدكتور عبد الرزاق النعاس في بغداد، وقبل أيام قليلة فحسب، فتزيد تلك البلاغة توهجا ومأساوية، ومن باب العلم بالشيء فالكاتب الشهيد ـ النعاس ـ عرف أيضا بكتاباته وتحليلاته النقدية والمناهضة للسائد المحمي بالاحتلال.

صحيح أن د. الجميل لا يقيم في وطنه العراق حاليا، غير أن من المرجح أن ذويه المقيمين هناك قد تعرضوا إلى تهديد مباشر من طرف أزعجته كتابات الجميل. ليس الأمر الجوهري الآن هو الانغمار في المحور الأمني والحيثيات والخلفيات الإجرائية «البوليسية» للموضوع. الجوهري كما نعتقد هو أن رسالة الجميل تصدر في السياق ذاته الذي صدر منه وعنه قرار سيد القمني بالصمت، وحدثت في مناخاته جريمة اغتيال النعاس وعشرات العلماء العراقيين سواه، وهذا أمر واضح كل الوضوح..فهل ستتسع وتسود هذه الظاهرة المفزعة، لتسكت الأقلام العربية واحدا إثر آخر في عملية اغتيال أو انتحار ثقافي مخطط لها بدهاء، دون أن تظهر في الأفق إشارة إلى طلوع ظاهرة مقاومة أو دفاع عن النفس؟

المعروف عن الكاتب والباحث الجميل، أنه عادة ما يعالج القضايا العراقية الراهنة بعمق وإبداع، والأهم من ذلك بحس وطني عال، وهو واحد من ألمع الباحثين العراقيين، الذين ظهروا في الحياة الثقافية والفكرية العراقية في العقدين الأخيرين. مقارباته، ودراساته، تميزت بالعمق، والتمحيص. لقد أنار سيار الجميل بكتاباته دروبا في مجالات ما تزال معتمة في علم الاجتماع والسياسة والتاريخ مثل ظاهرة «العثمنة»، وأرسى أسس نظرة مهمة، في مجال نشوء الثقافة الإصلاحية الحديثة، وجذور وأدوار طبقة «الأفندية» وهي التسمية العراقية لطبقة «الانتلجنسيا». ومع انه ركز بحوثه على مدينته «الموصل» الفيحاء، إلا أن ما فعله، يعد سدا لفراغ كبير في الثقافة العراقية، وكشفا لتاريخ واحدة من أكثر مدن العراق حيوية، وتفاعلا مع العصر الحالي. ويكفي سيار الجميل، انه قد أعلمنا بان «السلفية الجديثة»، هي من نتاج التجليات الفكرية العراقية، وأنها ولدت في مدينة الموصل، ومنها انتقلت إلى بغداد، حيث تشربها الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» مؤسس حركة « إخوان التوحيد والمذهب الوهابي فيما بعد، إبان دراسته في العاصمة العراقية، قبل أن ينتقل إلى مدينة البصرة، ومنها إلى الدرعية، ويبدأ دعوته المعروفة هناك.

إضافة إلى ذلك، فإن سيار الجميل، هو من المثقفين العراقيين الذين يؤكدون بوجودهم، ونشاطهم الثر «وحدة الثقافة والرؤية الوطنية العراقية» ومنطلقاته ومقارباته، تعاكس تماما التيار، الذي يريد تفتيت الرؤية الوطنية إلى نثار من وجهات النظر الطائفية أو العرقية، عبثا. هذا الموقع الهام، قد يكون ـ وهذا المرجح ـ وراء «إسكات» الجميل أو دفعه إلى السكوت، ولا شيء غيره منطقا، يمكن أن يجعل كاتبا مبدعا ومتحمسا مثله، يتوقف عن أداء دوره، سوى الحقد الأعمى عليه كأحد ممثلي الثقافة الوطنية، هذا عدا عن الجهل والانحطاط، الذي يرعاه المحتلون ويسعون بكل قوتهم لتسييده، عبر، رعاية رهط من عديمي المواهب، والممتهنين للتجارة بالوطن والقيم، وضمان هيمنتهم على الحياة والثقافة.

إن السياسة العراقية الحالية بمعظمها أصبحت على الطرف النقيض من الحالة الثقافية المرتجاة والتي طبل لها الكثيرون في ظروف «الديموقراطية» المحمية بالدبابة الاحتلالية.

لم يقل لنا سيار الجميل شيئا، عن الأسباب التي دفعته لاتخاذ مثل هذا الموقف القاطع، لكن «الرسالة وصلت» وهي اليوم مرسلة باتجاه الثقافة، والمثقفين العراقيين قبل غيرهم، فهذا أحد حملة القلم النظيفين والفعالين يصمت، ويتحدى بصمته من أجبروه عليه. غير أن صمت الآخرين عن هذه الظاهرة المفزعة، هو ما سيجعل أعداء الكلام والكتابة في عداد المنتصرين على الكلام والكتابة..والحياة.

لا حل ولا أمل، ولا أفق، إلا بالثقافة الحرة والحية والمبدعة، وانبعاث صوتها الصانع للحياة الحقة، ومن يعرفون بحسهم الأسود والموروث من محاكم التفتيش وغيرها هذه الحقيقة لا يتأخرون، وها هم يبادرون لإسكاتها، لقد استهدفوا سيار الجميل، بعد أن تأكدوا من انه أحد ممثليها «الخطرين»، وأن لديه ما يقوله في الاتجاه الصحيح، لهذا صرخوا بوجهه: «اصمت وإلا».. وأسكتوه.

ما الذي تحمله هذه الواقعة من دلالات؟ وعلى أي قلم سيكون الدور القادم؟

لعل أقل ما يمكن فعله اليوم هو رفع الصوت بالتضامن مع الجميل، مع كل جميل آخر سيستهدف.. لنطالبه بفضح الأسباب الحقيقية لقراره المؤسف هذا. لنقف معه ضد المهددين والمبتزين حملة رايات الظلام والصمت والتكرار والتكفير وتخوين وما تبقى من «باقة الإكليل الديموقراطي الأمريكي المقذوف في وجوه شعوبنا..

قولوا لسيار الجميل : لا تصمت، سندافع عنك وعن قلمك بالقلم، من أجل عراق حر ينبض بحياة جديدة..

* كاتب من العراق يقيم في جنيف